١

مدخـل

خلال هذه الصفحات سنقوم برحلة ممتعة فى عالم الإسلام فى أثناء القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى .

وسيكون رفيقنا ودليلنا فى هذه الرحلة رجلاً فريداً فى بابه فى تاريخ الحضارة الإسلامية والحضارة الإنسانية جميعاً ، وهو الرحَّالة الأشهر أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتى الطنجى رحَّالة الإسلام دون منازع . وهو واحد من أولئك الأفذاذ الذين فطرهم الله على السعى الدائب نحو المعرفة والكشف عن ستر المحجوب وتحمُّل المشاق وركوب الأخطار فى سبيل المعرفة، ولا هدف لهم من وراء النَّصَب إلا إشباع ذلك الشوق النبيل إلى العلم وإطفاء الغُلَّة إلى توسيع الأفق ، ومعرفة البلاد والعباد .

وقد سمعنا جميعاً عن ابن بطوطة ولكن القليلين منا اهتموا بأن يعرفوا عنه أكثر من الاسم، وأنه صاحب رحلات وأسفار وأحاديث مستغربة ، وأعتقد أنه لا عذر للناس فى ذلك : فرحلة ابن بطوطة معروفة متداولة بأيدى الناس، وهى قصة جميلة تُقرأ فى لذة واستمتاع ، لأنها فى صميمها مغامرة طويلة حافلة بالمعلومات الصادقة الدقيقة بالإضافة إلى ما فيها من الغرائب والطُّرف ، وراويها رجل صدوق لا يتكلف شيئاً فى أحاديثه ، بل

كان هو نفسه لا يفكر فى تسجيل رحلته لولا أن الناس ألحُّوا عليه فى ذلك، ولولا أن سلطان بلده - أبا عنان فارس المتوكل وهو الحادى عشر من سلاطين بنى مَرِين (٧٤٩-٧٥٩هـ) (١٣٤٨- ١٣٥٨م) - طلب إليه تدوين الرحلة بناء على إشارة الوزير أبى عبد الله الوطاسى، فمضى ابن بطوطة يكتب.

ويبدو أنه كان لا يملك أسلوباً طيِّعاً فى الترسُّل، فعهدَ السلطان إلى وزير من وزرائه من أهل الأدب والاهتمام بأدب الرحلات وهو أبو عبدالله ابن جُزَىّ وكلَّفه أن يعيد صوغ ما يكتبه ابن بطوطة من حديث رحلته، فجعل ابن بطوطة يكتب وابن جُزَىّ ينقِّح ويصوغ، ثم عاد ابن جُزَىّ على ما كتب فنقَّحه، وربط بين أجزائه، وأضاف إليه بعض ما لديه من حديث عن البلاد، وخاصة بلاد الحجاز والأراضى المقدسة والشام.

وعلى الرغم من أن ابن بطوطة قد عرَّف هذه الأرض المقدسة كما لم يعرِّفها أحد من الرحَّالة الذين كتبوا عنها فقد زارها وحج ست مرات، فإن ابن جُزَىّ لم يرضَ عن حديث ابن بطوطة عن الحجاز ومكة المكرمة والمدينة المنورة وموسم الحج، فرفعه ووضع مكانه صفحات من رحلة أبى الحسين أحمد بن جبير الأندلسى الغرناطى الذى قام بثلاث رحلات من وطنه الأندلس إلى الحجاز والمشرق قبل قيام ابن بطوطة برحلته بقرن كامل، وكتب وصف رحلاته فى كتاب ممتع معروف.

ومع أن ابن جبيرعاش فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى؛ أى: قبل ابن بطوطة بقرن كامل، فإن ابن جُزَىّ أجاز لنفسه هذا العمل، وكاد يفسد الكثير من صفحات رحلة ابن بطوطة بتدخلاته تلك التى تحمل أسلوب فقيه متأدب يريد أن يعرض للناس شيئاً من علمه ومحفوظه، ولكن لحسن الحظ لم يضف شيئاً أو يعدِّل شيئاً إلا قرَّر ذلك صراحة بقوله:

« قال ابن جُزَىّ » . ومن حسن الحظ أيضاً أن تدخلاته قليلة ، ولا صعوبة فى التعرُّف على إضافاته ونسبتها إلى أصحابها . ومعنى ذلك أن رحلة ابن بطوطة فى مجموعها أصيلة وسليمة إلى حد كبير .

صعوبة دراسة الرحلة دراسة علمية

ونسأل الآن : ما السبب فى عزوف الناس فى بلادنا عن دراسة رحلة ابن بطوطة دراسة تحقيق وتمحيص ؟ والجواب أن تلك الدراسة تتطلب من صاحبها اطِّلاعاً واسعاً على الأدب الجغرافى الإسلامى؛ أى : العربى والإيرانى والتركى؛ حتى يستطيع الدارس تحقيق أسماء الأمكنة والتعرُّف على الأشخاص ؛ ذلك أن أكثر من نصف رحلة ابن بطوطة يدور خارج نطاق البلاد العربية .

صعوبات تحقيق الأعلام الجغرافية

وإذا كنا نستطيع - دون كبير جهد - تحقيق الأعلام الجغرافية والشخصية فى بلاد العروبة فإن ذلك عسير خارجها ، وخاصة فى بلاد الترك والبلغر - أى: البلغار - وكانوا فى ذلك العصر يسكنون شمال البحر الأسود ، ولم يستقروا بعد فى وطنهم المعروف باسمهم اليوم، وهم فى الأصل تركٌ مسلمون فى غالبيتهم ، ثم تحوَّلوا إلى النصرانية فى مسيرهم نحو بلادهم الحالية .

وتزداد هذه الصعوبة فى فصول الرحلة عن بلاد الهند والصين وما يُعرف اليوم بجنوب شرقىّ آسيا وجزر الفلبين ، وقد زارها كلها هذا الرجل الطلعة الذى لا يكلُّ ، وهو يذكر أسماء المواضع كما كانت تُعرف فى أيامه ، وقد تغيَّر معظم هذه الأسماء اليوم ، والتعرُّف عليها يحتاج إلى درس وبحث طويلين حتى نعرف عمَّ يتكلم ؟

ثم إنه كان يرسم الأسماء كما كان يسمعها ، ولم يكن هذا السَّماع دائماً صحيحاً ، فيتطلب الأمر البحث عن النطق الصحيح ، وهذا أمر فى غاية العسر، بل إن زياراته لبعض بلاد العرب مثل عُمان وظفار - حافلة بأسماء أماكن وأعلام وقرى صغيرة دَثَرت، ولم يعد لها وجود ، فلا تزال تبحث عنها وتنقِّب حتى تهتدى إلى حقائقها إذا يسَّر الله لك ذلك .

ولهذا فإن القارئ العابر لا يلبث أن يملَّ ويسأم القراءة عن بلاد لا يعرفها ، وقد تَجَشَّمْتُ عناء هذا البحث والتحقيق ما وسعنى مستعيناً فى ذلك بكتب الجغرافية العربية ، وما تيسَّر من المؤلفات عن البلاد غير العربية فى عصر ابن بطوطة ، واستعنت فى ذلك بما كتبه الإنجليز والفرنسيون والإيطاليون من دراسات لأجزاء من رحلة ابن بطوطة وما ترجموه إلى لغاتهم منها .

وإنه لما تجدر بنا ملاحظته ولوم قومنا فيه أن أولئك الأجانب بذلوا أضعاف ما بذلنا من الجهد فى دراسة أعمال هذا الرحَّالة العربى المجيد ، وقد آن لنا أن نرجو قومنا أن يتكلَّفوا فى البحث والدرس جهداً أكبر مما يتحملونه اليوم ، وأن يعبِّروا عن حبهم لبلادهم وحضارتها بالانصراف عن السهل الميسور وإنفاق الجهد الجاد فيما يبدو لهم عسيراً، لأنهم لم يكلِّفوا أنفسهم عناء تيسير عُسْرِهِ وفتح مغاليقه .

وجدير بنا أن نذكر هنا أن هذا الرجل تجشَّم هذا الجهد كله ؛ لكى يرى بعينيه عالم الإسلام من أوله إلى آخره ، ولو أنه قام بهذه الرحلات فى أيامنا هذه ووسائل المواصلات ميسَّرة والرحلات قصيرة الأوقات لا يكاد الإنسان يحرم نفسه فى أثنائها متعةً - لكانت رحلة طولها مائة وأربعون ألف كيلو متر ، تنقل الإنسان عبر المعمور مرة بعد مرة ، ولكانت مشقة كبيرة ! فما بالنا وقد قام بها هذا الرجل فى عصور كانت وسائل الانتقال فيها لا تخرج عن المسير أو على ظهور الدواب أو متون سفن يرهب الإنسان منظرها فضلاً عن ركوبها !

فما قولك مثلاً فى السفن التى كان الناس يعبرون بها البحر الأحمر من عيذاب على ساحل النوبة الحالية إلى جدة ؟ كانت تُبنى لرحلة واحدة تتحطم بعدها ، فكان صاحب السفينة يجتهد فى استيفاء ثمنها قبل إقلاعها، ولا عليه بعد ذلك إن غرقت ، فقد استوفى ماله !

وما قولك وقد ركب ابن بطوطة هذه السفن مرة بعد مرة غير هيَّاب ؟ بل ركبها مرة من جدة فحملتهم الرياح إلى رأس دوائر شمال ميناء سواكن فى السودان ، فنزل الرجل على شاطئ السودان وزار قطعة طيبة من سواحله ، ثم ركب السفن نفسها مرة أخرى إلى الصومال ، فلم يُبدِ الرجل ضجراً ولا ندَّت منه شكوى ، وإنما أقبل يتفرج على الأرض التى حملته الأقدار إليها فى لذة السائح المشغوف بها ، وأتانا من خبرها بكل ممتع ومفيد وطريف !

ولقد خرج ابن بطوطة لرحلته وهو بَعْدُ فى الواحدة والعشرين من عمره لم تكتمل دراسته بعد ، فاستكملها على الطريق ، وخرج خاوى الوفاض لا يملك إلا بضعة دنانير ، فلم يحفل الشاب لذلك ولا ضجر ، وإنما أقبل على السير فى شجاعة تستوقف النظر ، وأحسن تدبير أمره فلم يَشْكُ طول رحلة زادت على ربع القرن مسغبةً ، ولا هو اضطر إلى التصعلك أو الكدية ، بل سار على سمته ؛ شيخاً كريماً على نفسه وعلى الناس ، قانعاً بالمبيت فى الزوايا وبما يقدِّمه القَوَمَةُ عليها من طعام بسيط أكثره الثريد وشىء من التمر .

وهذا كله يضفى على هذه الرحلات متعة وجمالاً ، بالإضافة إلى الفائدة التى لا شك فيها .

لهذا أقدِّر أننا سنسعد بهذه الأحاديث ، وسندع أنفسنا تمضى مع الرياح فى رفقة هذا الرجل الطرفة الفريد فى بابه الذى يَصدُق فيه قول ابن زُرَيق البغدادى فى قصيدته التى يبدؤها بقوله :

لَا تَعْذِلِيهِ فَإِنَّ العَذْلَ يُولِعُهُ قَدْ قُلْتِ حَقًّا وَلَكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ !

وذلك حيث يقول :

مَـــا آبَ مِـــنْ سَفَـرٍ إلاَّ وَأَزْعَجَـــهُ شَـــوْقٌ إلى سَفَـرٍ بِالعَـــزْمِ يُتْبِعُـــهُ !
كَأَنَّمَـــا هُـــوَ فى حِـــلٍّ ومُرْتَحَـلٍ مُـوَكَّـــلٌ بِقَضَـــاءِ اللهِ يَـذْرَعُـــهُ !
إِذَا الـزَّمَـــانُ أَتَـاهُ بِـالرَّحِيـــلِ غَـداً وَلَوْ إلى السَّدِّ[1] أَضْحَى وَهْوَ يُزْمِعُهُ!

* * *

(١) المراد : سد يأجوج ومأجوج .